الاتجاه الديني في الشعر الشعبي الجزائري

الأستاذة بدّو فضيلة
جامعة تلمسان

تناول الشعر الشعبي الأغراض نفسها التي تناولها الشعر العربي الرسمي، فمن خلاله نتمكن من استيعاب مشاعر شخصية الجماعة الشعبية، طالما أنه يعبّر عن أفكارها ومواقفها وأهدافها، إنه لسان حالها. "وما من شك في أن الشعر الشعبي الجزائري يمثل صورة من صور التقليد للشعر العربي في كل الأغراض الشعرية"(1) فهو امتداد للمواضيع التي طرقها الشعر العربي.

والشاعر الشعبي قد يكون أميا، لكن هذا لا يمنعه قطعا من فرض نفسه وإنتاجه على الصعيد الاجتماعي ونجاحه الجدير بالتقدير في قدرته على تقليد كل أغراض الشعر العربي. وقد شمل مواضيع كثيرة تتناول ظروف الإنسان في بيئته، فمنها ما هو ديني يرتبط بالتصوف أو الزهد، أو مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم- وصحابته. ومنها ما يتصل بالثورة فيسجل الأحداث والتحولات الكبرى في التاريخ. ومنها ما يلامس القضايا الاجتماعية، وغيرها من الموضوعات. كما استطاع عكس تقنيات الكتابة الشعرية القديمة والمعاصرة على حد سواء على غرار الوحدة العضوية القديمة والوحدة الموضوعية، وإيحائية اللغة، وكذا توظيف الشخصيات الدينية والتاريخية.

وللشعر الشعبي أغراض كثيرة، ولها تسميات خاصة بها عند أهل الفن، فالشاعر الشعبي له مواقف وهموم وأفراح يريد أن يعبّر عنها وأن يوصلها لنا عن طريق شعره. وبذلك امتد نظمه إلى جميع الأغراض القديمة والحديثة المعروفة التي نظم فيها الرسمي، واتخذ نفس المنهج ونفس الأسلوب. وكل شاعر وحسب ثقافته ومعرفته فهناك من نستخلص من شعره حكمة، وآخر يستهدف الإصلاح والإرشاد لقومه في شتّى الميادين والمجالات، كالإصلاح الاجتماعي والديني والتربوي... فكلاهما تأثر بالآخر، فأثر الشعر الرسمي في الشعر الشعبي واضح والعكس صحيح. يقول محمد المرزوقي " أغراض الشعر الشعبي كثيرة جدّا ولها أسماء خاصة في اصطلاح أرباب هذا الفن، فقد نظم شعراء الملحون في جميع الأغراض التي نظم فيها الفصيح وجروا في نفس المنهج واتخذوا نفس الأسلوب في جميع الأغراض القديمة المعروفة"(2)

أما الدكتور التلي بن الشيخ، فيقول: "... استطاع الشاعر الشعبي أن يقلّد كل أغراض الشعر العربي مدحا، ورثاء، وهجاء وحماسة وغزلا... مع اختلاف في الرؤية وتباين في الأسلوب، واختلاف في التصوير"(3)

والشعر الديني هو غرض من أغراض الشعر العربي، الذي نشأ في بيئات إسلامية، وانتشر وتغلغل بين الأوساط الشعبية خاصة والبيئات الدينية التي عبّرت عن رفض الاحتلال وعن حسرتها لمحاربة الدين، لأنّ الدين يلعب دورا مهما في حياته، فهو محرّك الأحداث والأحاسيس. ومن هذا جاءت رغبة الشعراء في إظهار تعلقهم

بالدين والتنويه بصاحب الرسالة ومدحه، "وعندما نتحدث عن الشعر الديني فإنّا نقصد به على وجه الخصوص المديح النبوي والاتجاه إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويتجلى في التعبير عن حبّه والتقرّب إليه أو وصف مواقفه وسيرته التي هي المثل الأعلى للمتدينين" (4). وتعود أشعار المديح النبوي إلى بداية الدعوة الإسلامية.

ولقد لفت انتباه أحد الباحثين غزارة الاتجاه الديني في الشعر الشعبي، فقال:" ولعل أهم غرض شعري طغى على مجرى الشعر الشعبي عبر العصور هو الغرض الديني، إذ احتضن المتصوفة والطرقية فيما بعد هذا الشعر وصبوا فيه كل تصوراتهم وأحاسيسهم وتجلياتهم وأفكارهم عن الكون والحياة والموت، وكرسوا هذا الشعر للعديد من المدائح التي مازالت العامة ترددها في مختلف أرجاء الوطن"(5)، فنجد من الشعراء من كتب قصة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كاملة منذ مولده حتى وفاته، أو يتحدث عن معجزاته أو صفاته أو أخلاقه الكريمة، وهناك من أرّخ لغزواته، وهناك بعض الشعراء من تحدث عن صحابته وأهل البيت.

ويفسر نفس الباحث السابق شيوع الطابع الديني، وأثره في القيمة الفنية، فيقول:"...نشير إلى أن طغيان هذا الغرض الشعري قد شحن الشعر الشعبي بقوة العاطفة والخيال، وأسبل عليه نوعا من الطابع الغنائي الديني كما وسمه من ناحية المضمون بسمة الشكوى والتذمر من الدنيا ومآسيها، وأضفى عليه طابع الزهد والانزواء والهروب من مشاكل الحياة، بل ويبلغ عند بعضهم أنه وصل إلى جلد النفس وتعذيبها وتحميلها الذنوب التي لم ترتكبها." (6)

وللأسباب نفسها ظهرت المدائح الدينية إذ " تمثل المدائح النبوية في الشعر الجزائري الحديث جزءا من هذا التراث العربي الإسلامي، الذي ظهر في الأدب العربي الرسمي والشعبي وشاع منذ زمن طويل. وقد ارتبطت في نشأتها بالفكر الصوفي والنوازع الدينية لظروف خاصة وعوامل مختلفة"(7) وأول قصيدة في المديح لنبوي هي لاميّة كعب بن زهير بن أبي سلمى ومطلعها(8)

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَومَ مَتْبولُ *** متَيَّمٌ إثرَها لَم يُفْدَ مَكبُول

وهي التي عرفت باسم البردة لأن النبي وهب كعبا بردته حين مدحه بهذه القصيدة، وتعد من أشهر قصائد الشعر العربي كما تكتسب "بردة" كعب أهميتها ليس فقط من الظروف التاريخية التي أنتجتها، ولكن من حيث أصالتها والأثر الذي تركته في شعر المديح النبوي حتى غدت بذاتها تقليدا يتبعه الشعراء موضوعيا وفنيا.

إن كل ما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء "ولكنه في الرسول (صلى الله عليه وسلم) يسمى مدحا كأنهم لاحظوا أن الرسول موصول بالحياة, وأنهم يخاطبونه كما يخاطب الأحياء، وقد يمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاء إلا إذا قيل في أعقاب الموت, ولذلك تراهم يقولون قال حسان يرثي, ليفرقوا حالين من الثناء ما كان في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم), وما كان بعد موت الرسول -عليه أفضل الصلاة- بخلاف ما يقع من الشاعر ولد بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وسلم) فإن ثناءه عليه مديح لا رثاء (9). مثل هذا المديح تلك القصائد

التي عبّر فيها الشعراء عن إيمانهم بنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)" وكانت تلك القصائد تلقى في المناسبات الدينية وهي عبارة مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخلاقه الكريمة.

والشعراء الشعبيين مثلهم مثل الشعراء الذين سبقوهم إلى هذا الفن الشعري، مدحوا النبي عليه الصلاة والسلام و دعوا بالصلاة عليه ذاكرا بعضا من شمائله. فنجد شاعر شعبي من غرب الجزائر يعبّر عن إيمانه بنبوة الرسول « صلى الله عليه وسلم »في قصيدة سماها "عظمة الإسلام"، يقول:

اللَّهُـمَ صَلِى عْلَى سَيّد النْبِيَـا(10)

مَبْعــوثْ الإلاَهْ طَـهَ بَلْقَاسَمْ

رَبِي بْعَثْ جَايَبْ (11) مْعَهْ بْرِيَــا (12)

لْلْبَشَرْ لْكُـلْ نَاهِي وَمنظــم

بَلَغْهَا لَخْلاَيْقَــهْ(13)كِمَا هِيَّــا

وْعَاهَدْ رَبِّي بَاشْ (14)يَخْدَمْ وَيْتَمَّـمْ

وفي قصيدة أخرى لنفس الشاعر أطلق عليها اسم "النبي حق" يمدح الشاعر أخلاق وصفات المصطفى الأمين، سائرا على نهج الشعراء الذين مدحوا النّبي- صلى الله عليه وسلم- وأشادوا بأمانته ونبل خلقه، ووصفوا جماله الباطن والظاهر:

محَمَـدْ مَعْروفْ مـولَى (15)أَمَانَـهْ

محَمَـدْ مَعْروفْ وَجْهَهْ نورَانِي(16)

محَمَـدْ مَعْروفْ وْ أمَّهْ أَمِينْــه

محَمَـدْ مَا هُوشْ (17)رَاجَلْ بَرَّانِـي (18)

مَا هـُو شَاعَرْ مَـا يَقْرَ فِينَــا

هَذْ الشِـي (19)محَالْ مَسْ مَنْ الْجَــانْ

اسْمْعــوا يَا قُومْ رَبِّي كَرَّمْنَـا

وْابْعَثْ فِينَا نُورْ جَـابْ الْبرْهَـانْ

هَذَا نْبـِي حْقِيقْ بْنْوَارْ جَانَــا (20)

مَا هو لاَ عَـرَّافْ وْلاَ كَهَــانْ

والمدائح النبوية كانت تنظم، وتلقى في المناسبات الدينية، كالمولد النبوي ودخول السنة الهجرية الجديدة، أو ذكرى تواريخ الغزوات، والواقع أن مثل هذه القصائد كانت متشابهة لأن مضمونها واحد وهو وصف السيرة النبوية. فكرر معظم الشعراء صفات الرسول الإنسانية (خير الخلق، الأميّ، الأمين، العادل، الهادي والشفيع...)

ويقول د.التلي بن الشيخ عن هذا الغرض ومكانته في الشعر الشعبي: "يمكن القول بأن الشعر الديني يمثل نموذجا خاصا في الشعر الشعبي الجزائري، وهو أقرب إلى الروح الإسلامية منه إلى النظرة الاقيمية أو القومية، ومن هذا المنظور يمكن اعتبار الشعر الديني شعرا إنسانيا يستهدف الدفاع عن الفضيلة، والذود عن كرامة الإنسان المسلم مهما كان جنسه وموطنه، ووضعه في النسق الاجتماعي"(21)

ويواصل في قصيدة "عظمة الإسلام" ، إذ يقول الشاعر:

اقْرَأ بَسْـمَ الله وَاحْفَظْ ذْ (22) الآيَـه

اقرأ بسم الله، عَلَـمْ بِالْقَلَمْ

وْلِسَـانْ القرآنْ لغَهْ عَرْبِيَا

فِيـهْ ٱلعِلْم وْفِيـهْ نِظَامْ مْحَّكَمْ

رَسْلَهْ (23)رَبـِي لَلْقْلوبْ التْقِيـَا

وَلـِيّ كَذَبْ غِيرْ جَاهَلْ مَا يَفْهَمْ

فِي الْإِسْلاَمْ تْذوقْ (24) مَعْنَى الْحرِيَـهْ

فِيـهْ الْحَقْ وْفِيهْ كـلْ التَقَـدّمْ

لاَ تَـوْرَاة مْعَهْ لاَ مَسِيحِيَـهْ

عَـنْدَهْ الله هو الَدِّينْ الْمسَلَّـمْ

هَـذَاكْ فَضْلْ رَبّي فْ هَذْ الـدَارْ

الصَاعْبَـهْ(25)بإذْنَـهْ يْسَهَّلْهَا

وْاللِيّ بْغَى (26)يْوَلِي لْلنْبِي جـَارْ

الْفَانْيَه (27)يْزَاهَـدْ وْيْفَارَقْهَا

والشاعر هنا يشيد بمبادئ الإسلام، ويرى أنّ الحرية لا تتحقق إلا بتطبيق الشرائع الإسلامية، فنراه متمسك بالإسلام، ويعتز بماضيه وماضي أجداده، ويفتخر بانتصارات المسلمين، فيحاول أن يربط ذلك الماضي المشرق بالحاضر القاتم، ويتوق إلى رؤية عظمة الإسلام، وعزة المسلمين تتحقق من جديد. "ونرى أن المدائح النبوية بمختلف أنواعها كانت نوعا من التنفيس عن واقع الشاعر وحرمانه، وحرمان البيئة عامة من الحرية، فلاذ الشاعر بالدّين والرسول -صلى الله عليه وسلم-، يستلهم من رسالته ما يشد عزمه ويملأ حياته" (28).

إذ يعتبر الدين قوّة المسلم التي تسنده عندما يتعرض لظروف قاسية وظالمة، كتلك التي تشهدها الأمة الإسلامية عبر العالم، فنجده دائما يرجع إلى الدين والإسلام، ويذكرنا بفضل الله على عباده المسلمين، كما جاء في قصيدة "فضل الله على عباده"، فالشاعر يذكرنا بفضائل الله والإسلام:

رَبّـِي مَنْ عْلَى عْبَادَهْ وَعْطـَاهمْ

هْدِيـَهْ تَحْمِي مْنْ هْمـّومْ الْعِقَـابْ

نْذَرهُـمْ وَلـِيّ تَنْجّـَحْ وَرّاَهـمْ (29)

قَالَلْهـمْ في الْبَاقْيـَه كَايَنْ حْسَـابْ

وْالْحيـَاةْ حْيـَاتْ ضْـوَاتْ(30)عْلِيهمْ

بَانْ الْحَقْ وْمَا بْقَى غِيرْ الصْـوَابْ

وَعْطـَاهمْ مَصْبَاحْ ضَاوِي عَلاَّهُـمَ

وَعْطـَاهُمْ مَفْتَـاحْ لَجْمِيعْ الْأَبْـوَابْ

ويمكن القول أن للشعراء الشعبيين قصائد زهدية، ينتقدون فيها تصرفات بعض الناس وأخلاقهم وأخطائهم، ولامبالاتهم حيال الفرائض الدينية والشريعة والسنة، فنجد شاعر يقول في قصيدة سماها "ليام":

لِيّـَــامْ(31)نَاقْصَه مَـنْ لَعمَارْ (32)

وَأَنَــا نْظَـلْ نَحْسَـبْ فِيهَــا

لِيَّـــامْ غَارَتْنَا بَقْبِيـحْ الْعَارْ

وْلِيَــا (33)أَنْتَ تْفَكَرْ فِي مَجْرَاهَـا

لِيّـَــامْ غَـرْقَتْ مَ (34)ألْبْحَارْ

فَرْعـونْ كَانْ غَالْطْ تَايَهْ(35)فِيهَــا

لِيَّــامْ طَقْسْ يَتْقَلَبْ بِاسْتِمْـرَارْ

لِيَّــامْ خَادْعَه شَارْبْ مَـنْ مَاهَـا(36)

وخلاصة القول أنّ الشعراءالشعبيين نظمواقصائد في جلّ المناسبات الدينية، كما أن انتشار القصائد الدينية سواء بالفصحى أو العامية، يعود إمّا إلى اتجاه الشعراء للدين هروبا من ظلم الاستعمار أو بطش الحكام أو الظروف المعيشية القاسية، وإمّا لتشبعهم بتعاليم الدين.

قائمة الهوامش والمراجع:

1) التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1990،ص87.
2) محمد المرزوقي ، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، ط1، 1967،ص125.
3) التلي بن الشيخ، المرجع السابق ، ص29.
4) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1981،ص383
5) أحمد حمدي: ديوان الشعر الشعبي شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، د.ط،د.ت،ص03.
6) أحمد حمدي، المرجع السابق، ص03.
7) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 45.
8) يراجع نص القصيدة في سيرة النبي لابن هشام, الجزء الرابع, بيروت دار الفكر د.ت, ص152-169.
9) زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 1935، ص17.
10) النبيا: الأنبياء
11) جايب: حامل
12) بريا: رسالة
13) لخلايقه: مخلوقاته
14) باش:كي
15) مولى: صاحب
16) نواراني: على وجهه نور
17) ماهوش: هو ليس
18) براني: الرجل غير المعروف، أي الدخيل والأجنبي
19) هذ الشي: هذا الشيء
20) جانا: جاءنا
21) التليبن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المرجع السابق، ص20.
22) ذ: هذه
23) رسله: أرسله
24) تذوڤ: تتذوق
25) الصاعبه: الحياة الصعبة
26) بغى: أراد وأحب.
27) الفانية: حياة الدنيا
28) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص232.
29) وراهم: أراهم وبيّن لهم
30) ضوات: أضاءت وأنارت
31) ليام: الأيام
32) لعمار : الأعمار
33) وليّا: إدا
34) م: ماء
35) تايه: تائه.
36) ماها: مائها